بسم الله الرحمن الرحيم

٩٠ — سُورَةُ البَلَد

مكية وهي عشرون آية .

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (لَآ أُقْسِمُ بِهَـٰذَا ٱلْبَلَدِ)

[٢] (وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَـٰذَا ٱلْبَلَدِ)

[٣] (وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ)

«لَآ أُقْسِمُ بِهَـٰذَا ٱلْبَلَدِ» تقدم فى مواضع متعددة من التنزيل الكريم تفسير (لَآ أُقْسِمُ) و (البلد) هو مكة . وقيد القسم بقوله تعالى « وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَـٰذَا ٱلْبَلَدِ » عناية بالنبىّ صلوات الله عليه. فكأنه إقسام به لأجله، مع تعريض بعدم شرف أهل مكة، وأنهم جهلوا جهلًا عظيما ، لهمهم بإخراج من هو حقيق به ، وبه يتم شرفه .

قال الشهاب: و(الحل) صفة أو مصدر بمعنى الحالّ على هذا الوجه. ولا عبرة بمن أنكره لعدم ثبوته فى كتب اللغة . وقيل : معناه وأنت يستحل فيه حرمتك ، ويتعرض لأذيتك . ففيه تعجيب من حالهم فى عداوته، وتعريض بتجميعهم وتفريقهم بأنه لا يستحل فيه الحمام ، فكيف يستحل فيه دم مرشد الأنام ، عليه الصلاة والسلام ؟؟

وقيل : معناه وأنت حل به فى المستقبل. تصنع فيه ما تريد من القتل والأسر، إشارة إلى ما سيقع من فتح مكة وإحلالها له ساعة من نهار ، يقتل ويأسر . مع أنها ما فتحت على أحد قبله ، ولا أحلت له . ففيه تسلية له ، ووعد بنصره ، وإهلاك عدوه. و (الحل) على هذين الوجهين ضد (الحرمة) وفيهما ـ كما قالوا ـ بُعْدٌ . لا سيما إرادة الاستقبال فى الوجه الأخير، فإنه غير متبادر منه . وإنما كان الأول أولى لتشريفه عليه السلام ، بجعل حلوله به مناطاً لإعظامه ، مع التنبيه من أول الأمر على تحقق مضمون الجواب، بذكر بعض موادّ المكابدة، على نهج

براعة الاستهلال ، وإنه كابد المشاق، ولاق من الشدائد، فى سبيل الدعوة إلى الله، مالم يكابده داع قبله ، صلوات الله عليه وسلامه .

« وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ » عطف على (هَٰذَا ٱلْبَلَدِ) داخل فى المقسم به . قيل : عنى بذلك آدم وولده . وقيل : إبراهيم وولده . والصواب ـ كما قال ابن جرير[1] ـ أن المعنىّ به كل والد وما ولد . قال : وغير جائز أن يخص ذلك إلا بحجة يجب التسليم لها من خبر أو عقل . ولا خبر بخصوص ذلك ولا برهان ، يجب التسليم له بخصوصه . فهو على عمومه كما عمه .

وإيثارُ (ما) على (من) لإرادة الوصف . فيفيد التعظيم فى مقام المدح . وإنه مما لا يكتنه كنهه لشدة إبهامها . ولذا أفادت التعجب أو التعجيب ، وإن لم يكن استفهاماً كما فى قوله تعالى[2] (وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ) أى أىُّ مولود عظيم الشأن وضعته. وهذا على كون المراد إبراهيم والنبىّ عليهما الصلاة والسلام ، ظاهر. أما على أن المراد به آدم وذريته، فالتعجب من كثرتهم ، أو مما خص به الإنسان من خواص البشر. كالنطق والعقل وحسن الصورة. حكاه الشهاب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ)

[٥] (أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ)

[٦] (يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا)

[٧] (أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ)

« لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ » أى فى شدة، يكابد الأمور ويعالجها فى أطواره كلها، من حمله إلى أن يستقر به القرار. إما فى الجنة وإما فى النار .

(١) انظر الصفحة رقم ١٩٦ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

(٢) [٣ / آل عمران / ٣٦] .

قال الزمخشرىّ : (الكبد) أصله من قولك (كبد الرجل كبدا) فهو أكبد، إذا وجعت كبده وانتفخت. فاتسع فيه حتى استعمل فى كل تعب ومشقة،ومنه اشتقت المكابدة. كما قيل : (كبته) بمعنى أهلكه . وأصله كبده إذا أصاب كبده . قال لبيد[1] :

يَا عينُ هَلَّا بَكَيْتِ أَرْبَدَ إِذْ قُمْنَا وَقَامَ الخُصومُ فِى كَبَدِ

أى فى شدة الأمر وصعوبة الخطب . انتهى .

وفيه تسلية للنبىّ صلوات الله عليه ، مما كان يكابده من قريش ، من جهة أن الإنسان لم يخلق للراحة فى الدنيا . وأن كل من كان أعظم فهو أشد نصباً . هذا خلاصة ما قالوه .

وقال القاشانىّ : (فى كبد) أى مكابدة ومشقة من نفسه وهواه . أو مرض باطن وفساد قلب وغلظ حجاب . إذ (الكبد) فى اللغة غلظ الكبد الذى هو مبدأ القوة الطبيعية . وفساده وحجاب القلب وفساده من هذه القوة . فاستعير غلظ الكبد لغلظ حجاب القلب ومرض الجهل .

« أَيَحْسَبُ » أى لغلظ حجابه ومرض قلبه لاحتجابه بالطبيعة « أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ » أى أن لن تقوم قيامة ، ولن يقدر على مجازاته وقهره وغلبته . مع أن ما هو فيه من المكابدة يكفى لإيقاظه من غفلته واعترافه بعجزه .

« يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا » أى كثيراً . من (تلبد الشىء) إذا اجتمع . والمراد ما أنفقه للافتخار والمباهاة والرياء . كقولهم (خسرت عليه كذا وكذا) إذا أنفق عليه . يتفضل على الناس بالتبذير والاسراف، ويحسبه فضيلة لاحتجابه عن الفضيلة وجهله . ولهذا قال « أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ » أى: أيحسب أن لم يطلع الله تعالى على باطنه ونيته، حين ينفق ماله فى السمعة والرياء والمباهاة لا على ما ينبغى فى مراضى الله ، وهى رذيلة على رزيلة ، فكيف تكون فضيلة ؟

---

(١) من كلمة قالها يرثى بها أَرْبَدَ ، أخاه لأمه ، وأولها :

ما إِنْ تُعَزِّى المَنُونُ من أَحَدٍ لا وَالِدٍ مُشْفِقٍ ولا وَلَدِ

انظر (رغبة الآمل) ج ٨ ص ١٦٧

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ)

[٩] (وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ)

[١٠] (وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ)

[١١] (فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ)

[١٢] (وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ)

[١٣] (فَكُّ رَقَبَةٍ)

[١٤] (أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ)

[١٥] (يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ)

[١٦] (أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ)

« أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ » قال القاشانىّ : أى ألم ننعم عليه بالآلات البدنية التى يتمكن بها من اكتساب الكمال ، ليبصر ما يعتبر به ، ويسأل عما لا يعلم ، ويتكلم فيه ؟

وقال السيد المرتضى : هذا تذكير بنعم الله عليهم ، وما أزاح به علتهم فى تكاليفهم ، وما تفضل به عليهم من الآلات التى يتوصلون بها إلى منافعهم ، ويدفعون بها المضار عنهم . لأن الحاجة إلى أكثر المنافع الدينية والدنيوية ماسة . فالحاجة إلى العينين للرؤية ، واللسان للنطق ، والشفتين لحبس الطعام والشراب وإمساكهما فى الفم ، والنطق أيضا . وقوله تعالى «وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ» أى طريقى الخير والشر. قال الإمام: النجد مشهور فى الطريق المرتفعة والمراد بهما طريقا الخير والشر . وإنما سماهما نجدين، ليشير إلى أن فى كل منهما وعورة وصعوبة

مسلك فليس الشر بأهون من الخير كما يُظن ، وإلى أنهما واضحان جليان لايخفى واحدمنهما على سالك . أى أودعنا فى فطرته التميز بين الخير والشر . وأقمنا له من وجدانه وعقله أعلاما تدله عليهما . ثم وهبناه الاختيار . فإليه أن يختار أى الطريقين شاء . فالذى وهب الإنسان هذه الآلات ، وأودع باطنه تلك القوى ، لايمكن للإنسان أن يفلت من قدرته ، ولايجوز أن يخفى عليه شىء من سريرته . « فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ » أى فلم يشكر تلك النعم الجليلة باقتحام العقبة . و (الاقتحام) الدخول والمجاوزة بشدة ومشقة . و (العقبة) الطريق الوعرة فى الجبل يصعب سلوكها . استعارها لما يأتى ، لما فيه من معاناة المشقة ومجاهدة النفس « وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ » أى أى شىء أعلمك ما اقتحام العقبة ؟ وفى الاستفهام زيادة تقريرها وكونها عند الله تعالى بمكانة رفيعة « فَكُّ رَقَبَةٍ » أى عتقها . أو المعاونة عليه . وتخليصها من الرق وأسر العبودية ، رجوعا به إلى ما فطرت عليه من الحرية « أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ » أى مجاعة « يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ » أى قرابة . قال السيد المرتضى : وهذا حض على تقديم ذوى النسب والقربى المحتاجين ، على الأجانب فى الإفضال .

قال : وقد يمكن فى (مقربة) أن يكون غير مأخوذ من القرابة والقربى ، بل من (القُرْب) الذى هو من الخاصرة ، فكأن المعنى أنه يطعم من خاصرته لصقت من شدة الجوع والضر . وهذا أشبه بقوله تعالى (ذَا مَتْرَبَةٍ) لأن كل ذلك مبالغة فى وصفه بالضر . وليس من المبالغة فى الوصف بالضر أن يكون قريب النسب . انتهى . وقوله تعالى « أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ » أى فقر شديد لا يواريه إلا التراب . يقال (ترب) كأنه لصق بالتراب ، ويقال (فقر مدقع) و (فقير مدقع) بمعنى لاصق بالدقعاء ، وهى التراب .

لطيفة :

ذهب الأكثرون إلى أن (لا) من قوله (فَلَا) نافية . وإنما لم تكرر ، مع أن العرب لاتكاد تفردها ، كما جاء فى آية[1] (فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى). [2] (فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ

(١) [٧٥ / القيامة / ٣١] . (٢) [٢ / البقرة / ٣٨] .

يَحْزَنُونَ) استغناء بدلالة بقية الكلام على تكرارها . لأن (لَا اقتحم) لما فسر بما بعده كان فى قوة (لا فك رقبة ولا أطعم مسكينا) وفى الآية أجوبة أخرى . منها أنه لما عطف عليه ، كان وهو منفى أيضاً. فكأنها كررت . وقيل (لا) للدعاء . كقولهم (لا نجا ولا سلم) وقيل مخففة من (ألا) التى للتحضيض . وقيل : إنها للنفى فيما يستقبل . وقال الإمام : أما ما قيل من أن (لا) إذا دخلت على الماضى وجب تكرارها ، ولم تكرر فى الآية ، فذلك لا يلتفت إليه . لأن الكتاب نفسه حجة فى الفصاحة . وقد ورد فى كلامهم عدم تكرارها . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ)

[١٨] (أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ)

« ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ » أى بالحق الذى جاءهم . عطف على المنفىّ بـ (لا) وهو (اقتحم) أو على (فك) « وَتَوَاصَوْاْ » أى أوصى بعضهم بعضاً « بِٱلصَّبْرِ » أى على ما نابهم فى سبيل الدعوة إلى الحق « وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ » أى بالرحمة على بعضهم . كقوله[1] (رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ) أو بموجبات رحمته تعالى من القيام بالحق والصدع به وعمل الصالحات « أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ » أى اليمن ، أو جهة اليمين التى فيها السعداء .

تنبيه :

قال القاشانىّ : يشير قوله تعالى (فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ) الآيات ، إلى قهر النفس بتكلف الفضائل والتزام سلوك طريقها واكتسابها، حتى يصير التطبع طبعا . ثم قال: فإن الإطعام، خصوصا وقت شدة الاحتياج للمستحق ، الذى هو وضع فى موضعه ، من باب فضيلة العفة

(١) [٤٨ / الفتح / ٢٩] .

بل أفضل أنواعها ـ والإيمان من فضيلة الحكمة وأشرف أنواعها وأجلها ، وهو الإيمان العلمىّ اليقينىّ ـ والصبر على الشدائد من أعظم أنواع الشجاعة ـ . وأخّره عن الإيمان ، لامتناع حصول فضيلة الشجاعة بدون اليقين . و (المرحمة) أى التراحم والتعاطف من أفضل أنواع العدالة . فانظر كيف عدَّدَ أجناس الفضائل الأربع التى يحصل بها كمال النفس . بدأ بالعفة التى هى أولى الفضائل . وعبر عنها بمعظم أنواعها . وأخص خصالها الذى هو السخاء . ثم أورد الإيمان الذى هو الأصل والأساس . وجاء بلفظة (ثم) لبعد مرتبته عن الأولى فى الارتفاع والعلوّ . وعبر عن الحكمة به لكونه أُمّ سائر مراتبها وأنواعها . ثم رتب عليه الصبر لامتناعه بدون اليقين . وأخر العدالة التى هى نهايتها ، واستغنى بذكر المرحمة ، التى هى صفة الرحمن ، عن سائر أنواعها . كما استغنى بذكر الصبر عن سائر أنواع الشجاعة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] (وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا هُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ)

[٢٠] (عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ)

« وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا » أى بأدلتنا وأعلامنا من الكتب والرسل وغير ذلك من آيات الأنفس والآفاق ، التى بكل يرتقى إلى معرفة الصراط التى تجب الاستقامة عليه فى الاعتقاد والعمل « هُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ » أى الشؤم على أنفسهم ، أو جهة الشمال التى فيها الأشقياء . وقال الإمام : أهل اليمين ، فى لسان الدين الإسلامىّ ، عنوان السعداء . وأهل الشمال عنوان الأشقياء « عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ » أى مطبقة أبوابها ، كناية عن حبسهم المخلد فيها ، وسد سبل الخلاص منها . أجارنا الله بفضله وكرمه منها .